الفصل الأول

المفتتح

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

■ المقال الأول:

أفريقيا ... من قرن إلى قرن

فى مطلع العام ١٩٠٠ احتشد فى لندن عدد من الأفارقة - معظمهم من زنوج الولايات المتحدة الأمريكية - بقيادة عدد من الشخصيات العاملة فى مجال توحيد الأفارقة الأمريكيين، برز بينهم لمدة نصف قرن بعد ذلك الدكتور وليم ديبويس (توفى ١٩٦٣) وهو من أصل كاريبى وأكثر ارتباطا بالقارة الأفريقية وقضية توحيدها. ومن هذا المؤتمر الذى يعتبر تأسيسيا لحركة الجامعة الأفريقية Pan Africanism حتى انعقاد آخر نماذجه فى أوغندا ١٩٩٥، انطلقت صيحة «ديبويس» الشهيرة بأن القرن العشرين هو «قرن صراع اللون»، أو بالأحرى قرن التمييز بين الشماليين البيض، والشعوب الملونة. واعتبر الاجتماع هو المؤتمر الأول للزنوج الذين لم ينسوا ما فعلته بهم تجارة الرقيق عبر الأطلنطى، وتحدث ديبويس باسمهم لتحرير الزنوج من ضنك التمييز العنصرى، بل وساند الكثيرون بعد ذلك دعوته لتأسيس «أفريقيا الكبرى»، أى الموحدة؛ انطلاقا من مستعمرات بلجيكا خاصة فى الكونغو. ويمكننا إذن تصور الآمال التى تصيغها الشعوب على رأس كل مائة عام كما يحمل تراثنا العربى تماما.

ولم تكن أفريقيا وحدها التى تطرح آمالها فى الوحدة والتحرر، فقد كان هناك جمال الدين الأفغانى والكواكبى وغيرهما ممن طرحوا فى نفس الفترة فكرة الجامعة الإسلامية منطلقة من مصر وعدد من الأقطار العربية والإسلامية، بل وكان هناك من يطرح فكرة الجامعة العربية ونظم لها مؤتمرها الأول فى باريس عام ١٩١٣.

كانت الظروف المحيطة كلها تدعو لمواجهة المشروع الاستعمارى وتهديداته

المتنوعة الأساليب ضد شعوب القارات الثلاث، فحوض الكونغو نفسه بأكبر الثروات فى العالم أعلنه ملك بلجيكا مزرعة خاصة، «والبوير» لبيض المتعصبين حاربوا بريطانيا نفسها للانفراد بأغنى بقعة أخرى فى جنوب القارة، «والاتفاق الودى» الإنجليزى الفرنسى يقسم الشمال الأفريقى، إلى مزارع للقطن فى مصر والسودان، أو أرض للاستيطان فى الجزائر والمغرب. والمشروع الصهيونى بقيادة هرتزل يزحف لتأكيد اغتصاب فلسطين، مثل قيادة سيسيل رودس لحركة الاستيطان فى الجنوب الأفريقى، مخططا لوصل المستعمرات البريطانية من كيب تاون حتى القاهرة، مرورا بوسط وشرقى أفريقيا.

ويبدأ القرن العشرين إذن والمشروع الاستعمارى فى عنفوانه بعد تقسيمات مؤتمر برلين ٨٤/ ١٨٨٥ للمستعمرات الأفريقية، بنفس أسلوب الاتفاق على اقتسام آسيا من قبل، وترك أمريكا الجنوبية شأنا خالصا لأمريكا الشمالية.

كان الوعد الأوربى بأن استقرارهم فى القارة، بل والاستقرار عموما تحت مظلة النظام الاستعمارى، يعنى للأفارقة التحديث، والانتقال من اتصارع القبلى، أو النظم المتخلفة (إقطاعية أو جماعية بدائية) إلى الإدارة الحديثة والاستثمار المفيد لثراوتهم، وزراعة المحاصيل النقدية، والاتصال التنويرى بعالم الحضارة والرسالة المسيحية، وفى مقابل ذلك كان الأمل الأفريقى فى التوحد والاستقلالية ونهضة الحضارات المحلية القديمة التى عرفت من أقصى الغرب واضحة فى آثار زيمبابوى والزولو إلى أقصى الغرب فى بنين وتومبوكتو، إلى الشمال فى الممالك المغربية، ناهيك عن أحاديث الأصول الأفريقية للحضارة الفرعونية نفسها (ومازال الفولا واليوروبا والباغندة والتوتسى يتناقلون أساطير الأصول العرقية هذه فى مناطق من القارة). وكل ذلك حمله المفكر والداعية «وليم ديبويس» وهو يؤسس لآمال

الوحدة الأفريقية.

وبينما الأحلام الأفريقية تمضى على هذا النحو المثالى، مثل أحلام غاندى والكواكبى وغيرهم، كانت الرأسمالية الأوربية تمضى بالدول الاستعمارية بفارق سرعة الطائرات عن الجمال والأفيال. وأدى بهم التصارع نفسه إلى خوض حرب عالمية طاحنة هى الحرب الأولى التى أكدت بمسمياتها وبشكل نهائى أن «العالمية» تعنى حركة الشمال الأوربى الذى يتخذ من بلدان الجنوب وقودا لصراعاته.

لكنهم أدركوا أن استمرار الصراع قد يدمر المعبد على رؤوسهم، ولذا سرعان ما اتفقوا على مبدأ البقاء للأصلح (فيما بينهم طبعا) ولكن على تقسيمات أفضل لمصالحهم من جهة، وعلى إكساب هذه التقسيمات شرعية دولية بإقامة عصبة الأمم ونظام «الانتداب» لإدارة الممتلكات الاستعمارية من جهة أخرى. وعندها استطاعوا تدمير إمبراطوريات ملغومة بعناصر المقاومة (العثمانيين) وقدموا وعد بلفور للصهاينة، وأعادوا تأكيد اقتسام جنوب وشرقى آسيا، واحتووا الكومنتانج نفسه فى الصين وحاصروا الثورة الاشتراكية المضادة لمصالحهم فى روسيا.

وتستقر عولمة النظام الاستعمارى - حتى مع صراع الحرب «العالمية» الثانية، تستقر بوعود كاذبة طالما نثروها بين الشعوب المقهورة، قهرتها الإدارة «الحديثة» ودعاوى التعليم والتنوير الحديث، قهرها سلب الثروات، وقهرتها النخب المضيعة مع هذه الوعود.

ولا تزيد نتائج الحرب العالمية الثانية الأوضاع فى أفريقيا - بل والعالم العربى - إلا بؤسا. إذ تطوق القارة بإعلان نظام «الآبرتيد» فى جنوب أفريقيا، والكيان الصهيونى على حدودها الشمالية الشرقية. وتقام «الأمم المتحدة» - متحدة ضد الاتحاد السوفيتى وحركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث حتى تنبعث الآمال فى

باندونج ١٩٥٥ لتعلن أن حركة التحرر الوطنى، هى بدورها عالمية مثلما أن الرأسمالية والإمبريالية عالمية وتصطدم الآمال الطموحة بالوعود الكاذبة لتنطلق معارك التحرر الوطنى بأمل التحرر الفعلى الذى يتطلع للاستقلال والتنمية، فى ظل دعوات القومية والوحدة والتحول الاجتماعى، وموازنة معسكر الاشتراكية بمعسكر الاستعمار، وانطلاق طاقة الشعوب لتسهم بنفسها- وليس فقط بالنخب المضللة - فى أحيان كثيرة.

كان وعد الستينيات كبيرا، فها هى أعلام الاستقلال وزعاماته، تملأ الدنيا بحركة عدم الانحياز، وحركات التحرير الوطنية، وما لا يتم بالسياسة، يجرى تحديه بالكفاح المسلح، وبرامج التنمية والخطط الخمسية ومشروعات التصنيع والكهرباء هنا وهنالك. واجتماعات الوحدة الأفريقية وفلسفات الاشتر كية الأفريقية ولجان التحرر على قدم وساق؛ ودول الشمال الأفريقى تنغمس فى قضايا الكونغو وروديسيا قدر انغماسها فى فلسطين والجزائر، بما يكسر حواجز بين العرب وأفريقيا وضعتها ثقافة استعمارية بعيدة المدى.

لكن الحلم الكبير فى السبعينيات لا يكتمل ولا يلحق بالفجر المأمول لاستقلال حقيقى وعالمية جديدة، إذ سرعان ما تتفعل عوامل داخلية لا تقل جذرية عن العوامل الخارجية لتطيح بعدد من زعامات ومواقع التحرر وعدم الانحياز إذ تتحول النخب الاجتماعية والسياسية إلى جماعات من الانتهازيين والاستغلاليين ويتحول عدد من الجيوش عن دوره الوطنى إلى قوى انقلابية مدمرة، ومن لم يلحق بهم الانقلاب أو التحول النخبوى، تعاجله قوى الاستغلال العامية بضربات قاتلة مباشرة وامتد ذلك من غانا نكروما إلى مصر عبد الناصر، إلى اللومومبية فى الكونغو بينما قوى حلف النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا مع قرينه فى الكيان الصهيونى.

ولم تكن حرب فيتنام ولا حصار كوبا ببعيد عن مسامع القابعين فى بعض العواصم الباقية التى ارتضت من الغنيمة بالصمت...

■ أوهام البترول والانفتاح الاقتصادى:

فى أكثر من لحظة خلال العقدين الثامن والتاسع من القرن العشرين، بدت ملامح جديدة لظواهر كبرى فى العالمين الأفريقى والعربى بوجه خاص، لم تكن مطمئنة فى معظمها لكن السبعينيات بدأت بأحداث كبيرة أخرى باعثة للآمال مثل انتهاء حرب فيتنام بانتصار ثوارها، ووقوع حرب ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط بمعجزة عسكرية ضد إحدى قوى الإمبريالية الفرعية، لذا بدت فورة البترول الدولارية، بقدر سلبياتها كمشكلة طاقة ومديونية فى أنحاء العالم الثالث، مثيرة لاحتمالات التعاون والتضامن العربى الأفريقى من جهة بل واحتمال تعاون الشمال والجنوب بطريقة إيجابية جديدة من جهة أخرى، وتصور البعض أن تشهد القارة حركة تنمية نتيجة هذا التعاون الجنوبى، تتغلب على مآسى ارتفاع أسعار البترول وتمضى بالآمال القديمة فى الاستقلال الاقتصادى قدر آمالها فى التحرر السياسى. لكن العقد الثامن لم يكتمل حتى بدت معالم الكارثة التى أطاحت بكل آمال التنمية عبر «السيولة المالية» العربية أو الأفريقية الآسيوية (حيث نيجيريا والجابون وماليزيا وإندونيسيا من أكبر مصادر البترول أيضاً) وبدلا من تدارك مجتمعات الكارثة مشكلاتها بمزيد من الضبط لحركة الإنتاج وتوزيع الدخل وتنظيم الأسواق الداخلية والعلاقات الخارجية، تستسلم هذه المجتمعات بسرعة لافتة - بقيادات اجتماعية بدت أكثر استغلالا من القوى الاستعمارية نفسها - لبرامج المؤسسات المالية الدولية حول ما سمى بسياسات الانفتاح والإصلاح الاقتصادى والتكيف الهيكلى! وبات علينا أن نتأمل ما يعنيه «الانفتاح» على قوى الاستغلال التاريخية -

مرة أخرى - وما يعنيه «الإصلاح» لما يعتبر سياسات التخطيط فسادا بينا، وما يعنيه «التكيف الهيكلى» أى التغيير البنيوى المتكيف مع المصالح الاستعمارية الجديدة! وبهذه المصطلحات تعطلت التنمية الفعلية بينما بلغت الوادئع المنقولة من بلدان القارة الأفريقية والبلدان العربية وحدها إلى بنوك أوروبا وأمريكا أكثر من رقم الديون نفسها. وبات على شعوبنا والطبقات التى تعانى فيها بوجه خاص أن تقوم بسداد هذه الديون التى تبلغ خدماتها السنوية أكثر من ٦٠٪ من دخل بعض البلدان الأفريقية بل وتصل إلى ١٠٠٪ فى بعضها الآخر، وهى فى أحسن البلدان قدرة على التخطيط لا تقل بحال عن ٢٥٪ من الدخل القومى.

قد يسهل الحديث عن مسئولية الشعوب الأفريقية، أو المشاركة فى توزيع تهم التخلف .. إلى غير ذلك من أساليب نفى أثر العوامل الخارجية، تمهيدا للتسليم بأن «النظام العالمى الجديد» أو العولمة، حين بدأت تصيغ «تضبيطاتها» مع أوائل التسعينيات تحت شعارات «التنمية المستدامة» ومغالبة الفقر فى بلدان الجنوب، إنما تقوم بعملية إحسان لهذه البلدان، شبيهة فى نظر البعض بما شكله الاستعمار نفسه من قيم الإحسان والتحضر والتنوير فى فترة سابقة، وأن الرفض الدائم لنعم العولمة، وحتى الاستعمار مجددا، هو من آفات الرافضين للتقدم، والمرتبطين دائما بالفرص - أو بالأحرى - بالآمال الضائعة.

لكنى أتصور أن السيناريو الأليم والمحبط الذى مررت على بعض عناصره فى لحظة اكتئاب فرضها تأمل نتائج قرن من الزمان على شعوب القارة الأفريقية، ليس السيناريو الحتمى بالنسبة للمستقبل البعيد على الأقل. لقد دمرت الدول «الرأسمالية» «المتقدمة» نفسها فى حربين عالميتين، ومع ذلك استطاعت أن تنهض بعد ما شاعت أتعس الفلسفات عن نتائج هذا التدمير، ولعل فى استعادة روسيا

نفسها لقوتها بالرأسمالية بقدر ما كانت قوية بالاشتراكية، أن يجعلنا نتساءل عن «جذر النهوض» فى عناصر الدولة القومية التى مازالت تشكل ملامح العصر، وأن العولمة لا تشكل تلقائيا نفيا لقوة الدول الوطنية وتطلعاتها؟

إن الأمر يبدو قريبا من ذلك فى تماسك بعض الدول الأفريقية نفسها مثل نيجيريا وجنوب أفريقيا وغانا وغيرها، وعلى الساحة العربية تتوفر أمثلة أخرى، ناهيك عما يكشفه الواقع الآسيوى والأمريكى اللاتينى من فرص. ويجعلنى ذلك أتأمل مطلع القرن الجديد - ودعونا من ترقيمه - فهو عندى قرن الاستعمار والتحرر وكفى - وأتأمل فيه إمكانيات لا بد لمثقفى هذه المنطقة من تأملها؛ وقد يعيدهم ذلك لقراءة «ديبويس» «والكواكبى» «وساطع الحصرى»... من أجل موجة جديدة نحو التحرر تستدعى:

أولاً: إعادة تأمل البنية الداخلية للدولة الوطنية وطبيعة النخب السائدة ومسئوليتها فى بعث موجة التحرر الوطنى، بديلة لاقتصادوية فكر التنمية فى عصر الانفتاح والتكيف الهيكلى.

ثانياً: قراءة إمكانيات النظام الإقليمى، على المستوى الأفريقى والعربى، وضرورة التفكير الجدى فى آليات التعاون العربى الأفريقى المؤسس والمقنن مع عدم تجاهل العمل الثقافى والفكرى داخله.

ثالثاً: عدم تبسيط أهمية حوار الجنوب / جنوب، قبل الحوار مع أنماط العولمة بالسياسات المالية المفروضة، التى تصيغ وحدها حوار الشمال/ جنوب.

ويتعلق الأمر هنا بقضية الديون وشروط الاستثمار بالنسبة للشمال، كما يتعلق بتكوين موقف تكتلى مناسب فى حركة الجنوب على نحو ما بدا فى إمكانيات مجموعة الـ ١٥ من جهة أو الموقف داخل منظمة التجارة العالمية من جهة أخرى

وكانت آخر مظاهره فى «سياتل» التى فرضت على كلينتون نفسه الخروج على «النص المتعالى المكتوب».

إننى لا أفهم استمرار اجتماعات «الموظفين» فى هذه الدوائر حتى على المستويات الوزارية، دون أن يجرى تنسيق اجتماعات جادة للمثقفين فى مناطق التفاعل هذه. ولا أفهم أن تدفع بعض المنظمات الأهلية بكل هذا الثقل فى «سياتل» ولا يندفع بنفس القدر ممثلو شعوبنا الحقيقيون.

قد يدفعنا ذلك لدخول «قرن جديد» بروح القوة جديدة، إن كانت قد سبقتها الروح الاستعمارية وروح الهيمنة «العولمة»، فقد تلحق بها - مرة أخرى- روح التحرر والتقدم.

◆◆◆

■ المقال الثاني:

عالم ما بعد ديربان أم ما بعد ١١ سبتمبر؟

تنقاد شعوب الجنوب- بوعي أو بغير وعي- إلى التأريخ لنفسها بحدث أمريكي تماما، فيما يسمى بأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وما لم نبحث هنا فى الأوضاع الداخلية الأمريكية التي يسرت وقوع هذا الحدث، ومسئوليات الأجهزة الأمريكية الكبرى ذات اليد الطولى داخليا وخارجيا؛ فإنه كان على الجميع مراجعة السلوك السياسي والعسكري الأمريكي فى العالم، والذي كان إحدى نتائجه وقوع الحدث بهذا الشكل القاسي. لكن المفاجأة كانت فى تحويل الحدث إلى إطار لمسئولية عالمية خارج الولايات المتحدة؛ لا تكتفي بالبحث عن المسئولين فى كل بقاع آسيا وأفريقيا وأبنائهم فى أوروبا وأمريكا، وإنما تفتش عن السبب فى العقول والحضارات والثقافات والمعتقدات السائدة فى هذه البقاع، لأننا لابد أن نعيش فى «عالم جديد».. هو عالم ما بعد ١١ سبتمبر، لا يكون فيه ما يقلق الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص!

وبهذا الإرهاب النفسي والإعلامي الأمريكي- إلى جانب الإرهاب العسكري المباشر- كدنا نسلم أننا فى عالم ما بعد سبتمبر، ولا أظن أن الأمريكيين أو الأوربيين يقبلون بتعليل التسمية بأجواء الإرهاب العالمي الأمريكي الذي يتهدد أكثر من أربعين دولة عربية وإسلامية وأفريقية هي التي تتضمنها القائمة الأمريكية لما يسمى بقواعد الإرهاب المطلوب تصفيتها. ذلك لأنهم يقصدون إقناعنا أن ما أصاب أمريكا أصاب «العالم» كله، لأن النظام الأمريكي هو قلب العالم. ولو أن الأمريكيين أقنعونا بتراجعهم- بعد سبتمبر هذا- بأنهم يراجعون أنفسهم، داخليا

وخارجيا وأنهم يعودون- معنا جميعاً- إلى قواعد الشرعية الدولية، وقضايا الحق والعدل التي تعاني معظم شعوب العالم من تجاهلها، وأن ثمة نظاما عالميا جديدا يمكن أن يصاغ الآن على أسس جديدة بدلا من «عسكرة العولمة» القائمة وقيادة حلف الأطلنطي بزعامة أمريكية لإجراءات الرعب العالمي الذي نشهده، لو أن ذلك ما حدث بعد سبتمبر، لقلنا معهم إننا نعيش عالما جديدا بالفعل هو «عالم ما بعد سبتمبر»، لكن ما يجري أمام أعيننا لا يشير، ولا يبشر، بأي من كل ذلك، ولذا يحق لنا، أي لجميع الشعوب المقهورة أن تختار تاريخا آخر وحدثا آخر فى التطورات الحديثة تؤرخ به لحركتها من أجل «العدالة» الحقيقية هو ما وقع فى «ديربان» بجنوب أفريقيا، ممثلا فى إعلان «ديربان» الشهير الصادر عن تجمعات شعبية من أنحاء الأرض فى مؤتمر عالمي ضد العنصرية. وقد صدر أيضا فى الأول من سبتمبر ٢٠٠١ أي قبل أيام من أحداث نيويورك وواشنطن.

■ رياح العنصرية.. إلى الجنوب:

إن عناصر كثيرة وحقيقية تتوفر للقول بأننا نعيش فى «عالم ما بعد ديربان»، إذا جاز لنا أن نؤرخ بوعي الشعوب ونهوضها وليس بتدميرها وقهرها. ففي «ديربان» جرى إعلان إمكانية «الفعل الجنوبي» فى مواجهة غطرسة «الشمال»، تلك الغطرسة التي تمثلت فى أجندة اعتادوا فرضها على حكومات الجنوب، بل وتكاد تكون قُبلت فى المفاوضات السابقة بنيويورك وجنيف حول قضايا تهم «الشمال» بالأساس. فثمة ضغط لتعديل الأوضاع فى بلدان الجنوب، أو إثارة نزعات العنصرية الداخلية بين الطوائف والأعراق والقوميات فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وفى ديربان نبهوا على الجميع بعدم الحديث عن تاريخ العبودية والرق الذي مارستهما أوروبا وأمريكا على أبناء أفريقيا طوال عدة قرون، وأن يسقطوا أيضا الحديث عن الصهيونية التي

يعذب مشروعها شعوب الشرق الأوسط- وكانت من قبل مقترحا للتطبيق فى أنحاء أفريقيا وأمريكا اللاتينية منذ أكثر من قرن. وخوفا على كبرياء مسئوليهم الأفاضل الأنقياء الأبرياء أرسلوا إلى ديربان عددا من صغار الموظفين الأمريكيين والإسرائيليين ليحملوا توقيعات الموافقة من دول العالم إلى السادة فى نيويورك وواشنطن. وشعر الجميع بإهانة «النظام العالمي الجديد» لهم، وطغت أصوات المنظمات الأهلية والشعبية التي فاق عددها الآلاف الثلاثة، والمجتمعة فى ديربان لتحقق ضربتين مذهلتين للنظام العالمي الجديد، الأولى هي إعلان المنظمات الشعبية والأهلية ضد العنصرية الشمالية مقررة مسئوليتها عن تجارة الرقيق ودعم النظام الصهيوني، قرين العنصرية والثانية الضغط على الحكومات المجتمعة التي أدى موقفها الغارق فى الإحراج إلى حد الانسحاب الأمريكي والإسرائيلي من المؤتمر، وإن صار تمييع النص الحكومي الصادر عن المؤتمر فى محاولة لإرضاء جميع الأطراف!

كان لابد من اعتبار أول سبتمبر هو بداية «عالم ما بعد سبتمبر» الحقيقي. لكن الرعب الذي دب فى معسكر «الشمال» من هذا الحدث أدى فى اعتقادي إلى المبالغة فى الإعلام عن أحداث نيويورك وواشنطن بعد ذلك بعدة أيام ليصير العالم هو عالم ما بعد نيويورك وليس عالم ما بعد ديربان.

■ ذاكرة الشعوب:

لقد أعادت شعوب الجنوب فى ديربان إلى الذاكرة نغمات «باندونج» ١٩٥٥ ومؤتمرات التضامن الأفريقي الآسيوي وعدم الانحياز فى القاهرة وأكرا ونيودلهى... استرجعت تجمعات «القارات الثلاث» بل وظهرت صور جيفارا؛ موضة حديثة بين الشباب، كما تستعاد ذكرى المهدى بن بركة، وتروج الأفلام عن عبد الناصر... وفى هذا الجو تصاعدت فى سماء «ديربان» رموز الانتفاضة

الفلسطينية، حتى لقد دعت العديد من المنظمات الشعبية الأفريقية العربية «جمال الدرة» والد محمد الدرة ليقود مظاهرات «ديربان» أمام قاعة المؤتمرات الحكومية- وهو الرجل البسيط المتواضع- رمزا لكفاح الشعب الفلسطيني ضد الصهيونية المطروح أمرها على المؤتمر!

والآن، ثمة سؤال: لماذا ديربان وليست «سياتل» أو «جنوا» التي شهدت احتجاجات صاخبة أيضا ضد النظام العامي الجديد؟ يمكن أن نبدأ الإجابة بأن «ديربان» بلورت كل ذلك، وكانت على قمته فاستحقت مكانتها. لكن الأمر يبدو أكثر دلالة. ففي ديربان كان المؤتمر المنعقد يمس أكثر قضايا شعوب الجنوب حساسية بالنسبة لتاريخها، وواقعها. لا ننسى أن ضحايا تجارة لرقيق الأطلنطية والتي قامت على أكتافهم حقائق الحياة الأمريكية، قد فاقوا الخمسين مليونا فى بعض الإحصاءات، ودمرت بسبب ذلك لممالك والثروات والتطورات الأفريقية جميعا. فالنظام الرأسمالي «العالمي» إذن، والتقدم العالمي الذي يعيشون أو يتحدثون عنه وحدهم قام على أكتاف ودماء أبناء الجنوب، وأفريقيا خاصة. والصهيونية، هي ابنة روتشلد صاحب أولى المستعمرات فى فلسطين، وأوبنهايمر صاحب أكبر مناجم للماس والذهب فى جنوب أفريقيا... وغير ذلك من الإشارات الكثير. لذلك بدت المنظمات العربية والأفريقية لأول مرة فى التظاهرات التي قامت ضد العولمة، فى مقدمة المتظاهرين فى «ديربان». خلافا لوجودهم المحدود فى سيتل أو جنوا. ولأن جماهير جنوب أفريقيا، كانت مازالت حديثة العهد بالتحرر من نظام «الأبارتهيد» فإنها بدت الأكثر إحساسا بمعنى «البانتوستانات الفلسطينية» التي تقيمها إسرائيل فى فلسطين. وشبهت انتفاضة الشعب الفلسطيني «بانتفاضة» سويتو ضد النظام العنصري. ولذلك هبت آلاف مؤلفة من مختلف أقاليم جنوب أفريقيا إلى «ديربان»

لتسهم بأعلى صوت ضد تجار الرقيق، والعبودية، وسياسة الفصل العنصري فى فلسطين.

لن ننسى أيضا أن ممثلي الشعوب الجنوبية الأخرى قد أدركوا ما تجرهم إليه «آلية الأمم المتحدة ومؤتمرها الدولي» من بحث كافة مشاكلهم الاجتماعية والثقافية تحت غطاء «مواجهة العنصرية على صعيد عالمي» أي بتحويل المشاكل الاجتماعية إلى مشاكل عنصرية فى خلط مريب للأوراق. لا شك أن ثمة اعتراف بمشاكل الأقليات والقوميات، ومشاكل المرأة والطفولة، والمهاجرين والمنبوذين، والمهمشين فى المناطق الفقيرة.. إلخ، لكن لم يكن من المنطقي أن يعالج ذلك فى مؤتمر عن «العنصرية» وأخطارها، وقد بدا الخطر الأكبر أن تمتد «رياح العنصرية» لتهب على شعوب الجنوب عبر مؤتمر عالمي مثل هذا. ولو نجحت خطة الوفود الأمريكية والأوربية، لاتهام معظم شعوب الجنوب بالعنصرية على هذا النحو الذي صيغت به مشكلات عربية وأفريقية وأمريكية لاتينية، لأصبحنا الآن فى نظام عالمي جديد فعلا.. تصيغه- مرة أخرى- الدوائر الأمريكية الأوربية. ليزداد الاقتتال بين شعوب الجنوب وداخلها. لكن جماهير «ديربان» قلبت السحر على الساحر، ومع السابع من سبتمبر ٢٠٠١- تاريخ انتهاء المؤتمر كانت صرخة شعوب الجنوب ضد النظام العالمي الجديد؛ واضحة المعالم، متجهة لضغط من نوع جديد، كاسح، وصادر من مواقعه الصحيحة فى «الجنوب»... ولعل ذلك- مرة أخرى- هو الذي جعل أحداث نيويورك وواشنطن- بعد ذلك بعدة أيام فقط، تأخذ هذا البعد الإعلامي «العالمي» لمسح آثار «ديربان»، بل والإعلان عن سياسة التأديب لكل من تحدثه نفسه بالاحتجاج على دعوى إعلامية «شمالية» أقرب للدعاوى العنصرية التي جرى الاعتراض عليها فى «ديربان»، وهى هذه المرة باسم صراع الحضارات،

وطبائع الثقافات والمعتقدات...!

■ سبتمبر الأفريقي.. والحرب الباردة:

والدوائر الغربية تعرف جيدا ماذا تفعل بهذا الإعلام الطاغي عما بعد سبتمبر الأمريكي ذلك أن «سبتمبر الأفريقي»... «سبتمبر ديربان»، كان يجسد إشارات سابقة خطيرة ذكرنا منها «سياتل وجنوا»... لكنه أيضا كان يمثل نهوضا خطيرا مجاورا للولايات المتحدة ممثلا فى اجتماع «بورتو أليجرى» بالبرازيل حين استضافت الحركات الشعبية هناك آلافا من ممثلي شعوب أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا والوطن العربي فى يناير ٢٠٠١، وبالتعاون مع الحركة الفلاحية الثائرة فى المكسيك، وذلك فى مواجهة مع نظام العولمة الجديدة وشروطه المجحفة بشعوب الجنوب، ومن «بورتو أليجرى» اتجهت الدعوة للاجتماع فى بعض البلدان العربية والأفريقية لتلتقي قبل مؤتمر «المنظمة العالمية للتجارة» فى الدوحة فى نوفمبر ٢٠٠١ تحت شعارات عن «العدالة الاجتماعية الدولية»، و«مصالح شعوب الجنوب» و«شعوبنا ليست للبيع والتجارة»... إلخ. وكان معنى ذلك أن آثار النجاح فى ديربان سوف تمتد بمخاطرها على «المصالح الكبرى» إلى أجواء متنوعة وآفاق جديدة... تهدد الهيمنة العالمية التي تحققها الولايات المتحدة تحديدا عقب انتصارها فى البلقان، ومحاصرتها للروس، والضغط بالديون والمعونات على الحكومات، التي قد تساعد فى صد هذا الهجوم الشعبي المهدد «للمصالح الكبرى» ومن ذلك يمكن القول إن الحرب الباردة لم تنته كما يشاع أحيانا، ومن حقنا أن نشير إلى أن عناصرها قد اختلفت فقط خاصة فى عالم ما بعد ديربان. فعناصر الحرب الباردة الأولى كانت بين معسكرين، لعبت فى أحدهما قوى التحرر الوطني دورا ليس بسيطا، وإن كان قد تم انسحاب المعسكر الاشتراكي ومعه قوى التحرر الوطني بسقوط الاتحاد السوفيتي،

فقد عادت الحرب الباردة ضد شعوب الجنوب متمترسة بالحضارة والثقافة ومتهمة إيانا جميعا بالإرهاب والتخريب، بل وفساد الواقع والمعتقدات... مثلما اتهُّم أطراف الحرب الأولى بالأيديولوجيا والإلحاد، وتطرف النزعة الوطنية.. إلخ. أي إن عناصر الحرب الباردة الجديدة لا تكاد تختلف إلا فى مزيد من الخسارة فى معسكر شعوب الجنوب. فها هم الروس والصينيون يستردون صحتهم، ويدخلون فى حوار بدرجة أو أخرى مع المعسكر المهيمن فى عالم ما بعد سبتمبر الأمريكي، بل إن بعض القوى ما زالت تتصارع حول وسط آسيا وبحر قزوين ، لكننا فى عالم ما بعد ديربان نعيش وحدنا أجواء الحرب الباردة، ولذا نحتاج لتفكير جديد، فى أشكال من التضامن على أساس شعبي وثقافي بل وحكومي، ولدينا من أشكال التنظيمات على مستوى بلدان الجنوب ما يستوعب حركتنا؛ من مجموعة الخمسة عشر (عدم الانحياز) إلى الثمانية (الإسلامية) إلى الاتحاد الأفريقي، إلى التيارات الجديدة فى أمريكا اللاتينية؛ ومثالها ما حدث مؤخرا فى الأرجنتين، علّ ذلك أن يجعلنا ننسى عالم سبتمبر ليتخلق عالم ما بعد ديربان.

القاهرة يناير ٢٠٠٢

■ المقال الثالث:

التاريخ والبشر: من كيب تاون.. إلى القاهرة

■ تمهيد:

أ - خلق نظام «الأبارتيد apartheid في جنوب أفريقيا حالة غير إنسانية بكل المقاييس على مدى عدة قرون جعلت مدينة مثل «كيب تاون» على أقصى الطرف الجنوبى الغربى من القارة وهى التى تتمتع بدرجة الأوكسجين النقية العالية وبالقرب منها إحدى أكبر ممالك الزهور Flora، ويصنع بها أجود أنواع النبيذ - هذه المدينة تصبح فى بضعة قرون حالة شديدة التنافر بسبب النظام القائم على التفرقة العنصرية الصارخة discrimination والفصل العنصرى الكامل Segregation والمسمى فى النهاية بالأبارتيد apartheid: كلمة تنطق بكل اللغات الأوربية المتعجرفة بمنطوق واحد لتطلق على مجتمع يضم عشرات الجنسيات والأعراق البشرية وفق خطة فصل دقيقة بين كل منها والآخر. لم يمنع الصراع بين الإنجليز والفرنسيين والبرتغاليين والألمان والهولنديين حول المنطقة فى القرن السابع عشر والثامن عشر من الوصول إلى اتفاق إلا حول السيطرة على خط «كيب/ كايرو» بوصفه خط بشريا رغم تنوعه، وخطا للمعادن والمحاصيل النقدية والمصالح الاستراتيجية. خليط كيب تاون من الإنجليز والأفريكانز والهنود والملونين والسود كلهم الآن أفارقة (يطلقون عليهم قوس قزح) فى ظل دولة جنوب أفريقيا الجديدة (٥٠ مليون نسمة) بعد قرون من الصراع العنصرى والاجتماعى.

وعلى الطرف الآخر من هذا الخط المشروع، تقع مصر، والقاهرة عاصمتها حيث

التوحد التاريخى فى آلهة التوحيد والعقيدة الإنسانية، والامتدادات البشرية فى حوض النيل جنوبا إلى الصحراء الكبرى غربا وشرقا، ومن الفرعونية ذات الأصل الزنجى عند البعض إلى الهلينية والمتوسطية شمالا، إلى السامية شرقا وغربا. وكل منها محمل بالوحدة الشاملة لأوسع المساحات البشرية.

ب- فى الطريق إلى القاهرة يمتد سيناريو الصراع والتوافق والتوحد من أقصى الجنوب إلى الشمال مارا بحضارات متنوعة الأصول والفروع، تشهدها منذ تنطلق من الجنوب؛ حضارات وممالك الزولو (جنوب أفريقيا)، والمتابيلى والشونا فى بقايا آثار زيمبابوى، ثم الماساى والكيكويو فى كينيا، مرورا بالباغندة فى أوغندا. ومع اتساع حوض النيل الذى يربط الجنوب بالشمال، تتسع خارطة الصراع والتوافق. ويمضى المرء بين ثقافات متعددة على أرض الكونغو ومنطقة البحيرات (التوتسي) إلى الإمبراطورية على الأرض الأثيوبية حيث ممالك أكسيوم والامهارا فى أثيوبيا، إلى ثقافة الدينكا جنوب السودان، ثم خليط «فلاتة» غرب أفريقيا (من أبناء الفولا العظام)؛ فى وسط هذه البلاد الشاسعة، إلى حضارة «مروى» النوبية السودانية ثم المصرية. وبالوصول إلى بحيرة السد العالى العظيم التى تربط السودان بمصر ثم معبد «أبو سمبل» نضع أقدامنا على حافة القاهرة، بعد عبور الحضارة الفرعونية فى الأقصر إلى ساحة من الحضارات والثقافات الشرقية والأوربية والتنوع ذى الأصول البشرية والحضارية فى القاهرة مما لا يوحى رغم ذلك إلا بحالة سلام إنسانى عالى المستوى لم تشهده كيب تاون المتنوعة بدورها أو تبشر به إلا منذ أعوام قليلة...

جـ- على طول خط الكيب/ القاهرة نشأ الكثير من الصراعات، والكثير من التوافقات، كان هناك صراع الكبار بين الدول الأوربية، وصراع هؤلاء مع الأهالى

الأفارقة «الكفار» Kafirs فى تعبير الأفريكانر ضمن عمليات تهجير واستيطان واستغلال ونفى غير إنسانية، ونشأ وفاق أوربى لمواجهة التحردات الأفريقية وتوزيع المصالح ودوائر النفوذ، ونشأ القتال الأوربى فى حروب 'لتحرر الأفريقية بالوسائل السلمية أو الكفاح المسلح، نشأ مشروع الدومنيون والجامعة الأفريقية Pan Africanism من وجهة نظر المستعمرين والمستوطنين، كما نشأت الاتحادية وحركة الوحدة الأفريقية من وجهة نظر الوطنيين.

وتجسد ذلك على مدى ثلاثة قرون ونصف تقريبا منذ ١٦٥٢ حتى الآن... وعلى مدى ثلاثة قرون ونصف تواصل الاستعمار الاستيطانى مع الاستعمار التقليدى حتى الاستعمار الحديث، وهيمنة مشروعات العولمة. وخطّط الاستعماريون المستوطنون للوصول من «الكيب» للقاهرة، مرة بخريطة السيطرة- الحمراء- التى رسمها عتاة الاستعمار، ومرة بمشروع طريق السكك الحديدية منـ مائة عام ليربط الكيب بالقاهرة، وهو الذى تجددت حركة إنشائه حتى ركبه مبيكى (رئيس جنوب أفريقيا) وسالم أحمد سالم أمين عام منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٩٨.

(٢)

بدأت المعركة حين وصل الكابتن جان فال ريبيك بسفينته الهولندية، يحمل بضع عشرات من الهولنديين والألمان والفرنسيين إلى رأس الرجاء الصالح (الكيب) عام ١٦٥٢ وهى ملتقى مرج المحيطين الأطلنطى غربا والهندى شرقا، وحين شعروا بالسلام مع الأهالى بدأ إنشاء محطة لشركة الهند الشرقية الهولندية، إحدى الشركات الاستعمارية الكبرى، محطة عبور إلى الهدف فى ملقا وجاوة الإندونيسية، ومحطة لعلاج البحارة الذين مرضوا بحمى الطريق، وليس بالمرض الأفريقى. جاء الأوربيون إلى أرض سلام مستقر بين أبناء «السن sen» (البوشمن والهوتنتوت)

بينما هم قادمون من أرض صراع بين العقائد الدينية وحروبها فى غرب أوروبا (الكالفنين- البروتستانت- الكاثوليك..)، وتستمر الصراعات الأوربية لقرن ونصف تصعد فيها وتهبط الإمبراطورية الهولندية حتى يسيطر الإنجليز (١٧٩٥) ليبدأ صراعهم مع المستوطنين من كافة الأجناس الأوربية وخاصة الألمان والفرنسيين. وخلال هذه الفترة من الصراع الإمبراطورى، يحضر العبيد الأرقاء من محطات الرق فى غرب أفريقيا (وكانوا يهيئون للترحيل لتعمير الأمريكتين) فيجلب بعضهم إلى الجنوب لإنشاء الطرق والسكك الحديدية والبنية التحتية لاستقرار المستوطنين، ويستجلب أيضا الآسيويون من إندونيسيا والصين وماليزيا والهند ليديروا جماعات الرق الأفارقة ويشاركوا فى مشاريع السكك الحديدية خاصة.

وتصبح «الكيب» عاصمة «الاستيطان» خليطا واسعا من البشر مازالت آثاره للآن فى الشوارع والمحلات والفنادق، وعند أسواق المدينة خاصة عند ووتر فرنت water Front ومحلات CTC (من القاهرة للكيب)، وفى محطة السكك الحديدية التى توزع هذه التنويعة البشرية إلى أنحاء الجنوب، وفى طرق الشمال وحتى فى البرلمان والمجلس المحلى ومجلس وزرائها الإقليمي.

مازالت الجموع الأوربية تأتى إلى هذه المحطة لتنطلق إلى مراكز المصالح فى جوهانسبرج أوالى مناطق تعدين الماس فى كمبرلى حيث مافيا تهريبه أو من ينقلوه لإعادة تصنيعه وفق خطط شركة De Beer الكبرى أو إسرائيل وغيرها فى انتيروب ببلجيكا والعواصم الأوربية، وبعضهم يجمع ماس جنوب أفريقيا مع الماس من أنجولا التى تحمى تهريبه حركة التمرد الكبرى (يونيتا) لينتقل إلى عواصم أفريقية وأوربية معروفة.

هناك قطارات وطرق شهيرة تنطلق من كيب تاون، تم إنشاؤها على طول القرن

العشرين وفق أحلام سيسيل رودس وكروجر لمد النفوذ الأوربى ثم المصالح الأفريقية وأحلام الأفريقيين فى الوحدة التاملة؛ تخرج من كيب للقاهرة... تحمل مجاميع من البشر متعددى الثقافات وتعبر خطا يبلغ طوله حتى القاهرة حوالى سبعة آلاف ميل إلى الشمال مارا بثقافات وحضارات عدة أخضعها الاستعمار جميعا فى عصر التنافس الأوربى والعصر الفيكتورى الكولونيالى العتيد بوجه خاص. كان حلم سيسيل رودس (١٨٥٣-١٩٠٢) أن يمتد خط سكك حديدية من الكيب للقاهرة مارا بأراضى الإمبراطورية البريطانية ومناطق نفوذها.

وشهد العصر الفيكتورى بداية المشروع بالفعل، رسمه «رودس» خريطة باللون الأحمر رمزا للدم والعنف والنفى الملكى للآخرين، يلون به خطا جغرافيا حقيقيا يمتد من مستعمرة كيب تاون مارا ببتسوانا إلى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى الآن) حيث ماتابو Matapo وقصره الجميل view of the world وروديسيا الشمالية (زامبيا الآن). ثم يصّاعد إلى تنجانيقا (تنزانيا الآن) وإلى كينيا وأوغندا (وكان ثلاثتها تسمى شرق أفريقيا البريطانية (مقابل غرب أفريقيا الفرنسية) والخط يمر على الخريطة كذلك بالكونغو البلجيكية وعند مرتفعات نيروبى يأتيه خط ممباسا/ كمبالا (من أقصى الشرق على المحيط إلى جوهرة أفريقيا فى أوغندا كما سماها تشرشل بعد ذلك) ومن أوغندا حيث يعبر علامات خط الاستواء الشهيرة كما يعبر مساقط المياه الأولى ومقياس مياه النيل الشهير عند جنجا حيث يقبع المهندس المصرى مع زميله الأوغندى لمراقبة حركة المياه المتدفقة إلى النيل، بعدها يواصل خط السيطرة البريطانية القديم طريقه عبر السودان مقيما فى جنوبه حاجزا ثقافيا ولغويا بين أفريقيا السمراء وعرب الشمال الذين يبدأون من ملكال. ثم يقيم حاجزا آخر بين السودان ومصر وإن أخضعهما معا للتاج البريطانى. وبذلك تكتمل

خريطة النفوذ المتصل التى مثلها العلم الشهير الذى وضعه سيسيل رودس وأسماه باسمه حاملا شارة كيب تاون وعلم مصر الملكية رابطا بينهما بالعلم البريطانى.

(٣)

* لم تتوقف عمليات تصفية الصراع بين القوى الأوربية التى انتقلت من أرض قارتها إلى القارات الأخرى منذ بدأت فى مطلع القرن السابع عشر حتى نهاية نظام الأبارتهيد سنة ١٩٩٤ تصارعت بالبشر وبالسلاح والتقسيم وبالثقافة.

فالثقافة الألمانية والفرنسية والهولندية تكون القاعدة الرئيسية لحوالى سبعة ملايين أوربى من خمسين مليونا يعيشون الآن فى جنوب أفريقيا، وتمسكت هذه الأقلية بمصالح منفصلة حتى عن بريطانيا التى هيمنت منذ أواخر القرن الثامن عشر فكانت حرب البوير حرب الاستعمار الاستيطانى مع التقليدى لتستمر آثارها وذكرياتها المريرة (١٨٩٨-١٩٠٢) حتى بعد استقلال جنوب أفريقيا (أو تحولها الديمقراطى كما يسمون عام ١٩٩٤).

ثم كانت حرب هؤلاء البوير مع الثقافات الأفريقية، والآسيوية (عربية وإسلامية...) يفصلون ويميزون بينهم فى الأحياء والحافلات والمصالح الحكومية ومواقع العمل.

بعدها كان طرد الإنجليز للبرتغاليين وحصارهم فى أنجولا وموزمبيق (الليزوفون) ثم كان طرد الألمان وحصارهم فى جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا الآن) وتنجانيقا (تنزانيا الآن). وحين استبعدت فرنسا من الخط نهائيا اكتفت بنفوذها الثقافى مع البلجيك فى الكونغو ورواندا وبوروندى. وحين حاولت الاقتراب من الخط فى السودان تحاربت مع الإنجليز ورسم لها حد النفوذ فى فاشودة لتقف باستعمارها لغرب أفريقيا الصحراوية (أو بلاد السودان) عند تشاد، بعيدة عن منافذ

الأنهار والمحيطات التى تنفرد بها بريطانيا.

فى هذا الوقت كله كان العمال الأفريقيون يحفرون مناجم الماس والحديد والذهب وأشهرها حفر أكبر حفرة فى العالم فى «كمبرلى» لاستخراج الماس فى جنوب أفريقيا والمعروفة باسم The Big Hole (الثقب الأعظم). وكان العمال الآسيويون يستجلبون للعمل فيأتى معهم أبناؤهم الذين يحفظون القرآن أو يعلمونهم إياه بفضل تعلم بعضهم فى الأزهر حتى أثروا فى البعض من المستوطنين الذين بدأوا يؤسسون لغة خاصة بهم هى الأفريكانية Afrikaan بل وبدأوا كتابتها أحيانا بالخط العربى تأثرا بتعلم الآسيويين لهذا الخط وكتابة لغاتهم به.

وفى الشمال قليلا حاربت جيوش سيسيل رودس مملكة المتَبيلى والشونا نهاية القرن ١٩ (زيمبابوى الآن) ودمروا حضارتهم التى لم يبقَ منها من معالم جميلة إلا آثار زيمبابوىZ. Ruins

وفى تنجانيقا (تنزانيا الآن) وفى نفس الفترة من أوائل القرن العشرين كانت على الخط أيضا حرب «الماجى ماجى» مع الألمان، حيث وحشية الألمان لم تقابلها إلا الحرب برش المياه على الأجساد الأفريقية الهزيلة (ماجى ماجى) رغبة فى حمايتها من الرصاص الأوربى المهلك دون معرفة أساليب مقاومة مباشرة.

كان شعب تنجانيقا ينعم ببناء «دار السلام» - عاصمته فى احتلاط مع العرب والثقافة العربية الإسلامية رغم تجارة الرقيق العربية على نطاق فردى لم يشعل الحروب مثلما حدث مع الاسترقاق الأوربى الجماعى.

وفى تنجانيقا، مثلما فى كينيا شمالها جيئ بالآسيويين من الهند وجنوب شرقى آسيا للقيام بأعمال قد لا يجيدها الأفارقة فى نظر الأوربيين، أو بالأحرى حيث يقاوم الأفريقيون- ولو بالمقاومة السلبية- المشروعات الأوربية كالتعدين والسكك

الحديدية فى أراضيهم (خاصة فى جنوبى أفريقيا) أو زراعة المحاصيل النقدية كالكتان والسيسال ومشروع الفول السودانى الفاشل فى تنجانيقا أو إقامة خط مباسا/ نيروبى/ كمبالا فى كينيا وأوغندا. ومثل حرب الماجى ماجى ضد الألمان فى تنجانيقا كان هناك تمرد الكيكويو فى كينيا ضد سلب أراضيهم لصالح السكك الحديدية، وكان تمرد «الباغندة» بسبب تهديد نفوذ مملكتهم بوجود الآسيويين ونفوذ البريطانيين.

حين أقام سيسيل رودس أولى خطوات الفصل العنصرى فى كيب تاون بمنع السود من المرور فى شوارعها الأوربية أواخر القرن ١٩، فإنه استبق إجراءات «الأفريكانز» العنصريين عندما طبقوا ذلك على نطاق أوسع منذ عام ١٩١٠ وحين أقاموا دولة الأبارتيد السياسية والاجتماعية كاملة بحكم الحزب الوطنى الأفريكانى سنة ١٩٤٨.

هل لهذا التاريخ (١٩٤٨) صلة بارتباط مشروع الفصل العنصرى ودولته فى جنوب أفريقيا وفى فلسطين؟ ليس ثمة خيال سياسى شارد هنا. فالصلة الموثقة بين سيسيل رودس وهرتزل كانت قائمة فى أوائل القرن العشرين، وكان الأخير يرغب فى دراسة نمط شركة جنوب أفريقيا البريطانية التى أقامها رودس ومشروعه لمد خط الكيب إلى القاهرة، وبين مشروع هرتزل لإقامة الوكالة اليهودية وإقامة الدولة فى إحدى المستعمرات البريطانية على نمط مشروع رودس وزعيم الأفريكانز العنصريين «كروجر» فى الجنوب. وكان مشروع هرتزل المستعمرة على منابع النيل فى أوغندا أو الاستفادة من مياهه فى العريش وفلسطين.

لكن بريطانيا كانت تخوض حرب المياه مبكرا فخشيت من مشروع هرتزل وتأثيره على مياه النيل التى تروى محصول القطن فى السودان ومصر/ كما لم تشأ

تأسيس مواقع للصراعات العنصرية على النحو الذى كلفها كثيرا فى حرب البوير، فلجأت لنظم الحكم غير المباشر بتمليك شيوخ القبائل والممالك الشهيرة للسلطة فى تنجانيقا وكينيا وأوغندا، وأبرز أنثروبولوحيوها ثقافات مشتتة على أنها مجتمعات غير دولتية Stateless فى معظم مناطقها على خط كيب/ القاهرة ومن ثم بررت حكمها لبلدان الخط كله.

هنا برزت فى الثقافة الأوربية وأنثروبولوجيتها أسماء لأشتات من قبائل وممالك تمتد على خط كيب/ كايرو وكأنه لا تجمعها أية وحدة وتضم الزولو والمتابيلى والشونا والماساى والكيكويو والباغندة، والدينكا والشلوك ومروى، -بهذا التتابع- حتى محاولة التقسيم بين مسلمين وأقباط فى مصر ليكتمل خط السيطرة.

لكن هذه المسميات لم تمنع من تصاعد روح الاستقلال الوطنى وتكوين الدول الوطنية الشهيرة على هذا الخط من الكيب للقاهرة، ولم تمنع من بروز زعامات كاريزمية تمثل معنى الوحدة الكبيرة وليس التفتيت المتعمد الذى قصده البريطانيون على طول مشروعهم الاستعمارى الكبير، وليس صدفة أن بعض هؤلاء الزعماء كانوا أبناء قبائل أو طوائف كبرى (مانديلا- كينياتا- موجابى- المهدى- أوبوتى- إلخ) أو كانوا مثقفين وعسكريين وطنيين (نيريرى.... عبد الناصر....)... إلخ.

(٤)

على طول خط كيب- القاهرة تصارعت ثقافات الشعوب الواقعة على هذا الخط مع الثقافة الأوربية بطرق شتى غير أسلوب المواجهة المألوف بين الحداثة والتقليدية، إذ يبدو أن تلك الصياغة الأخيرة أكثر حداثة على طول هذا الخط من واقع الصراع القائم ونتائجه لأن عمره احقيقى يبلغ عدة قرون.

أ- قد تكون ثقافة ولغة «الأفريكانز» هى أحدث صيغ الصراع بين الثقافة

الهولندية- الألمانية والفرنسية وبين الإنجليزية تحديدا، ولابد أن مقابلات مكثفة مع القيادات التقليدية للفئتين يمكن أن تكشف الأبعاد العميقة للصراع الثقافى الذى يجعلهما يبدوان دون أصول أوربية مشتركة. وقد عمقت فترة المقاطعة الأوربية- ولو الصورية- لجنوب أفريقيا بسبب نظام الأبارتهيد إحساس الأفريكانز بعزلتهم عن العالم. وكان زعيمهم «كروجر» فى أول القرن العشرين ومع قيادته لحرب البوير ومن خلال إعجابه بالحركة الصهيونية قد صور «الأفريكانز» فى صورة اليهود الذين طردوا من أرضهم (حين أبعد الإنجليز الأفريكانز من كيب تاون) وتطلعوا «لأرض الميعاد» شمال البلاد (ولاية فرى ستيت Free State) واعتبروا أنفسهم «الشعب المختار». ولعله من خلال هذا التشابه نشأت أسس العنصرية (الأبارتهيد) بعد ذلك ونشأت أيديولوجيا العبء الحضارى للرجل الأبيض، والرسالة الدينية الحضارية لتمدين الأفارقة.

فى هذا الاطار تبنى البيض نمط المسيحية التى لا تعترف بمسيحية الأفارقة بل وتعزلهم عن الكنيسة فى ممارسات بدت أبشع لون للعنصرية لنيلها من سماحة المسيحية الأصيلة حين أعلنت كنيستها فى جنوب أفريقيا عدم السماح للسود بدخولها، وأعلن زعماء البيض عدم ترحيبهم «بتمسيح» الأفارقة السود (ويمكن مناقشة ذلك الآن مع رجال دين مسيحيين خاصة من كنائس Nederdintse أو الكنائس الإصلاحية الألمانية) وقد ارتبط بالممارسات الدينية أيضا نظام كامل من الممارسات الاجتماعية (عدم زواج أبناء جنس من آخر) وكل أشكال فلسفة التنمية المنفصلة بين الأجناس Segregation التى طورتها المدرسة العنصرية للحزب الوطنى (الأبيض) منذ ١٩٤٨ (وهى أصلا منذ أوائل القرن العشرين) باسم التمييز العنصري R. Discrimination الذى يمكن متابعة آثاره حتى بعد نهاية نظام

الأبارتيد .

ب- فى مقابل ذلك نمت روح أفريقية منفصلة بالفعل عن المسار الأفريكانزى فى حالة من التحدى لتعنت البيض ضد السود، وكأداة مقاومة ذاتية وإن لم تكن تحديثية، فبرزت تقاليد ممالك الزولو والخوسا والسوتو مما يمكن تسجيلها حتى الآن خاصة وقد رشح الزولو ابنهم «بوتوليزى» لمنافسة مانديلا وحزبه عند الاستقلال. لكن فلسفة الفصل العنصرى الكامل حتى بإقامة «البانتوستانات» لم تنجح فى تفتيت الحركة الوطنية، فقام حزب المؤتمر الوطنى الأفريقي ANC منذ سنة ١٩١٢ كأقدم حزب سياسي أفريقي جامع لأكثر عناصر الأمة، ومعبرا عن الكفاح من أجل «دولة أفريقية» ديمقراطية متعددة الأجناس بالطرق السلمية إلى حد عدم تبنى العنف المسلح إلا أواخر الستينيات. وذلك نتيجة تأثير مبكر للفلسفة الغاندية.

وبذلك قدم الشعب الأفريقي للعالم مانديلا كما قدم الهنود غاندى، (فلسفة عدم العنف) ومن هنا يشار «للعنف» دائما كفلسفة للبيض وليست للسود يرثون آثارها الآن فى العنف الاجتماعى ضدهم. وعلى طرف آخر من الحياة الروحية رفض الأفارقة موقف الكنيسة الأفريكانزية الغالبة، وتبنوا موقفا مسيحيا مستقلا وأسموا الكنيسة المستقلة «الكنيسة الأثيوبية» إشارة إلى أصل أفريقي للتدين وليس التبعية لكنيسة أديس أبابا. ولكن لا ينكر أحد خط الكنيسة القبطية المصرية الممتد للجنوب حيث البابا المصرى زعيما روحيا للكنيسة الأثيوبية نفسها حتى الستينيات مما يجعلنا نتصور خطا بين الكيب/ القاهرة غير الخطوط المادية التقليدية.

جـ- أما قطاعات الآسيويين والملونين، فقد تراوح موقفهم دائما بين القوتين المتصارعتين لكن بميل أكثر إلى الأفارقة وخاصة الآسيويين الهنود والمسلمين الذين

أسسوا مؤتمرهم باعتباره الحليف الدائم للأفارقة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، كما كانت الهندوسية والإسلام أديانا كبرى بينهم حيث لم يتبنوا المسيحية الأوربية مثلما فعل الأفارقة أنفسهم. وقد كان لقاء الأقلية المسلمة الآسيوية بإخلاص مع الأفريقيين لقاء له أهميته وان انقسموا بانقسام الهند وباكستان ولكن صلتهم كانت بمسلمي الشرق الأوسط بنفس القدر (السعودية- إيران) وكان بينهم الدعاة الشيعة كما برز بين السنة الداعية الإسلامي «أحمد دادا».

د- فإذا ما انطلقنا إلى الشمال وجدنا المسيحية تعود لصيغتها التبشيرية العادية فى زيمبابوى وزامبيا ومالاوى، ووجدنا الأقلية الإسلامية تحتفظ بصلة بمسلمي شرق أفريقيا وخاصة «بالتراث الزنجبارى» فى المنطقة ذات الطابع العربى الإسلامي والأفريقي ولا يخفى عند النظر على طول المنطقة الجنوبية هذه أثر الشيعة وتمثلهم لإيران خاصة بعد الثورة تمهيداً لعلاقات مع تيارات الاستقلال الأفريقي التى لم يكن الشاه مهمتا بها. وإلى الشمال أكثر قليلا يزداد ارتباط الإسلام بالعروبة فى تنزانيا (دار السلام) وساحل كينيا (ممباسا) ثم فى أوغندا نفسها وخاصة فى الشمال (الباغندة- عيدى أمين .....).

ومع هذا الاقتراب من الإسلام والعروبة نجد الثقافة واللغة السواحيلية، لغة معظم بلدان شرقى أفريقيا، وهى اللغة الرسمية فى تنزانيا، واللغة الثانية فى كينيا وأوغندا. والسواحيلية فى الأصل لغة وثقافة وحضارة بانتوية- نيلية ذات صلة بالسامية العربية وإن كان العرب يميلون لاعتبارها نتاجا مباشرا لانتشارهم فى هذه المنطقة حيث لا يخفى تأثير ثقافات عمان واليمن والخليج عموما فى الملبس والمأكل والحياة العامة، وهناك ممالك تاريخية معروفة تركت آثارها فى مدن الساحل غير ممباسا (من سوفالو فى موزمبيق إلى كيلوا وتنجا فى تنزانيا والمزروعية فى كينيا حتى

كسيمايو فى الصومال....) ويقول مثل سائر فى المنطقة أن لمزمار كان يعزف فى زنجبار ليرقص على أنغامه البعض فى منطقة البحيرات (بل إن آثار زيمبابوى يحيطها التعريف بصلة المملكة بالعرب، وفى رواية بالفينيقيين ونتيجة مبادلة الذهب بالأقمشة والمواد الغذائية التى كان يحملها العرب) وليس الحديث عن الصلة التاريخية قاصرا على التعبيرات العربية الإسلامية أو الثقافة السواحيلية السائدة أو مبادلات زيمبابوى، ولكنه يمتد إلى ميثولوجيا الصلة بالأصل الفرعونى، ليس وفق نظرية شيخ انتاديوب بشأن سكان الصحراء الغربية الذين نزحوا لوادى النيل إلخ، ولكنا هنا أمام تفاخر بعض القبائل الكبرى بالصلة بالمصريين الفراعنة نجدها عند الماساى والتوتسي والباغندة. وحتى فرانسيس دينج المثقف من جنوب السودان وصف تراث «الدينكا» - قبيلته - الذى يحكى عن صلتهم بالشرق الأوسط.

(٥)

وخط الكيب - القاهرة ليس قاصرا على التاريخ أو الأنثروبولوجيا وحدهما. ولا على صلات الثقافة والكنيسة أو الدين عموما، ولكنه يقوم الآن أكثر على صلات النخبة السياسية والاجتماعية من جماعات إلى حركات التحرر الأفريقية. وقد تعرضنا لصلة المسلمين الآسيويين والعرب المقيمين فى الجنوب والشرق من القارة بأقصى شمالها، بقى أن نعرض لصلات النخبة الحديثة من الحركات السياسية والاجتماعية ممن يمكن رصد صلات عناصرهم الموجودة فى الحياة العامة حتى الآن، وقد يفيد هنا الإشارة إلى من توافدوا بالمئات من أبناء البلاد الواقعة على هذا الخط للتعلم فى الأزهر وضمتهم مدينة البعوث الإسلامية بالقاهرة أو المدينة الجامعية. لجامعة القاهرة بالجيزة، أو ضمتهم جامعة الخرطوم وعاشوا فى أم درمان وضواحيها، ويمكن مقابلة بعضهم حتى الآن قيادات ثقافية واجتماعية فى بلادهم.

أما النخب السياسية فقد جاءوا إلى القاهرة منذ الستينات خاصة عقب مؤتمر جامع للشعوب الأفريقية الآسيوية (يناير ١٩٥٨) تمثلت فيه حركات التحرر الوطنية الناشئة من جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية (زيمبابوى) وكينيا وأوغندا والصومال وإريتريا، ثم جاء بعد ذلك تباعا أبناء أنجولا وموزمبيق وزامبيا والكونغو وبوروندى. وقد طلب هؤلاء من عبد الناصر أن يبقى تمثيلهم فى القاهرة لينفتحوا على العالم الخارجى إزاء الخطر الشديد عليهم من قوى الاستعمار والأبارتيد فى بلادهم، وبدأ افتتاح مكاتب تمثيل حركات التحرير تباعا فى مقر موحد لهم بالزمالك حيث صار عنوان ٥ شارع أحمد حشمت- مقر الرابطة الأفريقية من أشهر العناوين فى عالم سياسة التحرر الوطنى فى الستينيات.

وشهد هذا المكان الذى مازال قائما للنشاط الأفريقي حتى الآن- زيارات مانديلا وكاءندا وأوجنجا أودنجا (كينيا) وموسازى (أوغندا) وسام نجوما (ناميبيا) ونيتو (أنجولا) ودوسانتوس (موزمبيق) وموخيخلى (ليسوتو) وحتى سافمبى من أنجولا. وبعض هذه الشخصيات ممن خدموا أحزابهم فى القاهرة صارت تعيش فى أعلى المناصب فى بلادهم حتى وقت قريب. كان من بينهم الراحلون وزير خارجية جنوب أفريقيا (ألفريد نزو) وجوشوانكومو نائب رئيس جمهورية زيمبابوى، وعبد الرحمن بابو الوزير السابق والمفكر الأفريقي المعروف وروبين كامنجا (زامبيا). وسام نجوما رئيس ناميبيا. ومازال «جوزيف نتلا نتلا» وزير دولة فى جنوب أفريقيا، وموكيبى كان وزيرا للخارجية والداخلية فى أوغندا حتى وقت قريب وهو سفيرها الحالى فى القاهرة!

وبين كوادر حزب المؤتمر الوطنى الأفريقي (جنوب أفريقيا) وحزب زانو (زيمبابوى) والحزب المتحد فى زامبيا وغيرهم فى كينيا وأوغندا، يمكن مقابلة

الكثيرين منهم حتى الآن.

هذه النخب السياسية والاجتماعية هى التى مازالت تشكل دون شك إمكانيات تنشيط العلاقات بين دول المنطقة على طول خط الكيب/ القاهرة. وهى علاقات متنوعة فى كافة المجالات. ذلك إذا ما تجاوزنا تعاونهم فى إطار فترة التحرر الوطنى بإقامة منظمة الوحدة الأفريقية وقاعدة تدريب الوطنيين فى مقر لجنة تحرير المستعمرات فى دار السلام. وشهود هذه المرحلة مازالوا أحياء بيننا، ولم يكن التدريب قاصرا على الأعمال العسكرية وإنما مختلف القطاعات التى نضجت داخل الحركة كالشباب والمرأة والعمال. وهى قطاعات فاعلة تماما فى الحياة السياسية الآن. أما عن انتظام سلسلة الدول على هذا الخط نفسه فإنه يمكن رصد أعمال وتنظيمات منظمة الكوميسا COMESA (السوق المشتركة لشرق وجنوبى أفريقيا) التى تضم دولا حديثة وإقليمية تمتد من الكيب للقاهرة بالفعل. وفى هذا الإطار يأتى بوجه خاص الشاى من كينيا لمصر، والدخان (توباكو) من زيمبابوى لمصر، والسياحة من جنوب أفريقيا لمصر، كما تذهب الأقمشة والمواد الغذائية على نفس الخط من مصر لهذه الدول.

لذلك يمضى مشروع خط السكك الحديدية من الكيب للقاهرة بهمة ملحوظة حيث وصل بالفعل من الكيب لدار السلام ونيروبى ومن هناك ينطلق الطريق البرى للقاهرة حيث يصعب انطلاقه من أوغندا عبر السودان لأسباب لا تخفى.

(٦)

■ قطارات وطرق« كيب- القاهرة»:

القادم من كيب تاون للقاهرة، قد يركب الطائرة فتقفز به فى ١٢ ساعة قفزة واحدة بين البلدين، وهناك أكثر من شركة طيران تفعل ذلك الآن بالفعل، وهنا لا

يحتاج الأمر إلى معرفة غير تكنولوجيا الطيران! لكن هناك عوالم أخرى تكشفها وسائل وسيطة وقائمة بالفعل بدروها، لا تقف عند المشى على الأقدام مثلما فعل البعض من هواة «الماراثون»، ولكنها تستخدم النقل البرى (السيارات) حيث تتوفر الطرق من الكيب للقاهرة حاليا، إلى جانب القطارات التى اتصلت على أجزاء كبيرة من طريق الكيب- القاهرة، أحدثها ما دشنه عدد من رؤساء الجنوب الأفريقى فى أكتوبر ١٩٩٨ بين كيب- دار السلام على الأقل.

*الطرق البرية: تمضى هذه الطرق من الكيب إلى شمال إقليم جنوب أفريقيا ثم إلى بتسوانا لتأتى إلى زيمبابوى ثم زامبيا حتى دار السلام عاصمة تنزانيا. ومنها تنطلق حتى أروشا فى شمالها عابرة جبال كلمنجارو ثم حدائق National Park فى كينيا إلى نيروبى، ومنها إلى مناطق شبه صومالية ثم إلى أديس أبابا لتتجاوز مشاكل أوغندا مع السودان ولذا تنطلق عبر أسمرا إلى طريق برى من بورسودان إلى السويس والقاهرة.

ويكون واردا دائما أن تخرج الطرق من تنزانيا لتعبر بحيرة فيكتوريا إلى كمبالا، ومن هناك إلى نيمولى على حدود السودان لتمضى إلى جوبا جنوب السودان عابرة منطقة قناة جونجلى المتعثرة بفعل نشاط ثوار الجنوب، حتى يصل المرء إلى ملكال ومنها إلى الخرطوم (مقرن النيلين) ليعبر إلى شمال السودان ويركب بحيرة السد العالى إلى أسوان ثم يواصل من هناك للقاهرة مباشرة.

*أما السكك الحديدية، فإنها توفر عددا من القطارات؛ خطين منها للركاب وأحدها معروف بتخصصه فى نقل البضاعة. وهذه القطارات تمضى من كيب تاون عابرة مناطق تعدين الماس والحديد فى «كمبرلى» شمال جنوب أفريقيا ثم جوهانسبرج عاصمة البلاد الكبرى لتصل إلى بولاوايو فى زيمبابوى ثم إلى لوساكا

بزامبيا، ومنها إلى مبيا جنوب تنزانيا عابرة مضيق كيداتو على بحيرة فيكتوريا ومنها إلى دار السلام.

وتتعدد القطارات غير المؤهلة للسفر الصويل من تنزانيا حتى أوغندا أو نيروبى بكينيا، ليبدأ دور الطرق السريعة بالسيارات على النحو السابق ذكره.

* والرحلة بوسائل النقل السابقة ليست مسألة سفر لنقل بضعة أو لمتعة قطع المسافات الطويلة كما يفعل البعض، ولكنها رحلة فى عوالم من البشر والطبيعة تتجاوز التصورات التقليدية لمثل هذه الرحلة.

ففى كيب تاون خليط هائل من البشر والصراعات، وفى جوها نسبرج بعض أكبر مؤسسات العالم الثالث الاقتصادية والعلمية، وشمالها مملكة الزولو وتقاليدها الراسخة، وبين حزب الزولو «انكاثا» وحزب المؤتمر الوطنى حوار سياسي واجتماعى ذو طابع خاص. وفى كمبرلى التجارب المرة حول تعدين الماس وتجارته، لتنطلق ربوع المراعى حتى زيمبابوى.

أما بولا وايو فى زيمبابوى فحولها أغنى آثار لزيمبابوى ودولة توروا التى حكمت جنوب الزمبيزى، ثم هى أكبر مركز سياحى من حول مساقط فيكتوريا وشلالاتها.

عقب ذلك ينطلق المسافر إلى زامبيا ليعبر «شارع القاهرة» فى قلب لوساكا بذكريات حركات التحرر الوطنى- التى حررت أخطر مواقع الاستعمار الاستيطانى فى أفريقيا- بالإضافة للآثار التاريخية للاستيطان فى ولفنجستون.

أما مضيق «كيداتو» حيث تتصارع المصالح حول مد خطوط لسكك الحديدية لتجبر حملة البضائع إلى تغيير حمولتهم لبضعة كيلومترات لتلحق بقطار من نوع آخر فإنها لا تترك المسافر فى مراح تنزانيا إلا لتلقى به على الشاطىء الآسيوى الأفريقى

العربى بدار السلام.

ومن دار السلام سيفكر المسافر فى عبور بحيرة فيكتوريا الساحرة إلى أوغندا أو يواصل طريقا منها إلى شمالها الجبلى الأخاذ عند أروشا حيث جبال كلمنجارو ذات السمعة العالمية، وحيث يتراكم الجليد فى البلاد الاستوائية!

إذا اختار المسافر أن يمضى من هناك شمالا فلا بد أن يعبر أرض الماساى الغنية بالأساطير فى كينيا ليصل إلى نيروبى مركز المواصلات والاتصالات الدولية حاليا. قد ينتظر هناك مسافر بالبحار من ديربان فى جنوب أفريقيا إلى دار السلام ثم ممباسا. ومن ممباسا يركب قطارا تاريخيا عمره أكثر من مائة عام يمر بنيروبى فى طريقه إلى كمبالا وهو الذى اشتغل فى الحفر له الهنود بوجه خاص يحملون آثاره ويستقرون بجميل صنعهم ورثه للثروة هناك.

ومن هذا القطار أو من السيارة سوف يرى المسافر النصب المذكور على أرض أوغندا إشارة رمزية إلى معالم خط الاستواء حتى يصل إلى عاصمة التلال السبع- كمبالا. ومنها على بعد كيلو مترات يجد نفسه فى «جنجا» ومخارج نهر النيل العظيم حيث مقياس النيل الذى يقبع بجانبه الفنيون المصريون والأوغنديون.

وفى كمبالا سوف يتابع المسافر أخبار الملك- الكاباكا وحوارات مجلسه اللوكيكو الذى بقى رغم تغيرات النظم السياسية عتيدا قدر تاريخية هذه المملكة. وسوف ينحدر المسافر مع مياه النيل إلى نيمولى على حدود السودان ليجد قوات الثوار أو «المتمردين» تسد طريق الرحلة لكن جمال الطبيعة قد يدفعه سواء كان قادما من نيروبى أو جنجا لمحاولة النفاذ عبر المعابر الرسمية أو عبر الثوار أنفسهم من «نيمولى» إلى جوبا على أرض السودان حيث آثار جامعتها الكبيرة حطاما تنتظر الوفاق فى الخرطوم. وعلى أرض جنوب السودان لن يستطيع المسافر أن يتجاهل

«ناس الدينكا» وفتيانهم الشهيرين برعاية أبقارهم وتصفيف قرونها فى طقوس لم يعبرها كتاب بالصمت. وقد يتاح للمسافر أن يعبر على مشروع قناة جونجلى التى ارتاح الدينكا لتعطلها حتى تعبر أبقارهم المستنقعات دون عائق من قناة أو سد كان يحفر له الحفار الفرنسى الذى تعرض له متمردو المنطقة.

قد يعبر المسافر فى منطقة الشلك والنوير عند ملكال ليصل عند «المُجرن» أو «المقرن» بأى لهجة اخترت، حيث يلتقى أو يقترن النيل الأبيض والأزرق عند الخرطوم مثل التقاء المحيطين عند كيب تاون.

ويتوازى الخط عند الخرطوم مع من اختاروا خط نيروبى/ أديس أبابا حيث يعبر المسافر إحدى العاصمتين إلى حضارة أكسيوم فى أثيوبيا أو حضارة «مروى» النوبية شمال السودان، وكلاهما له قصة فى التاريخ بين ذكريات كوش وقصة الحضارات النيلية والسامية.. إلخ.

فإذا اختار المسافر خط أديس أبابا فسينطلق منه إلى طرق قارية تصل به إلى بورسودان ومنها إلى السويس ليحازى ترعة لإسماعيلية التى تربطها بالقاهرة، أما إذا اختار طريق «دنقله» ومروى فسوف يتجه إلى بحيرة السد العالى يعبرها إلى أسوان ثم الأقصر ليصل إلى القاهرة.

أعتقد أن المسافر الذى سيقطع ١٢,٥ ألف كيلو متر ليصل من كيب تاون للقاهرة، سوف يكون فى حاجة لما ينسيه مشاق هذه الرحلة أو من يدمجه فى هذا الخليط من البشر الذى يذكره بكيب تاون على نحو آخر، سوف يتذكر خليط محطة السكك الحديدية وهو فى ميدان رمسيس، ويتذكر الإسلام والمسيحية من الأزهر والمقر البابوى المصرى، وسوف يتذكر أنه انتقل من جو الصراع إلى جو الوفاق وإن تشابهت الفضاءات والساحات.